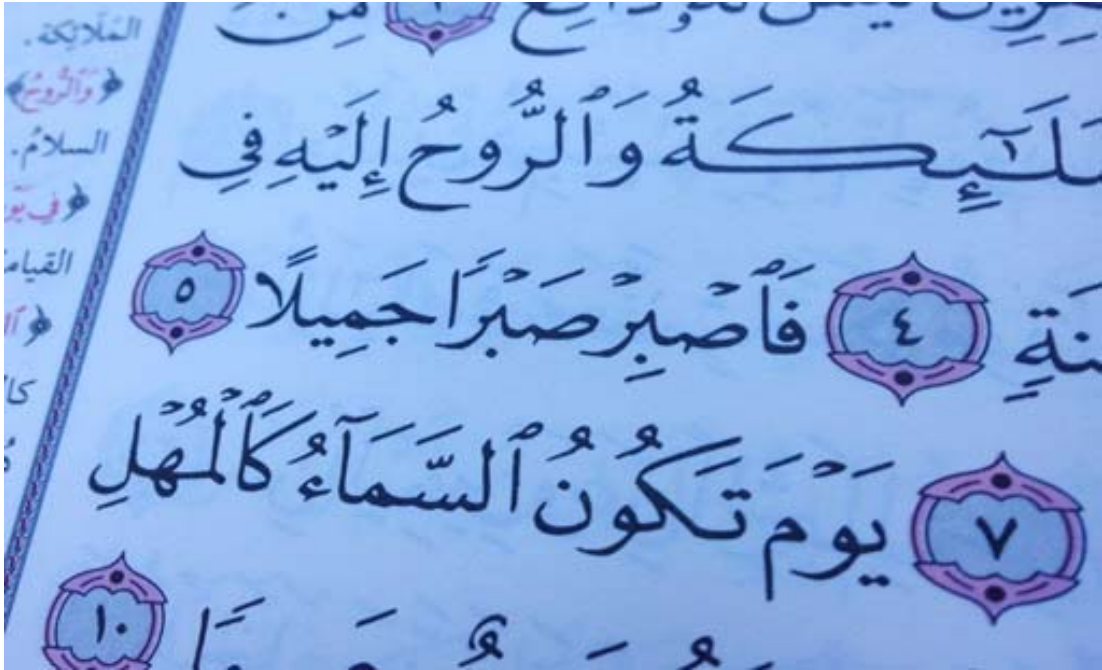


المحن من سنن ا في خلقه



«لامحن سنة من سنن ا في خلقه، تنزل بالمؤمن والكافر، والصالح والطالح، وإن تنوعت وتغيّرت أشكالها وصورها، فهذا يعاني من مرض، وهذا يعاني من عقوق ولده، وهذا يعاني من نشوز زوجه، وهذا يعاني من الفقر، وهذا يعاني من التخمة، وهذا يعاني من الاعتقال والحبس، وهذا يعاني من القهر والتعذيب، وهذا يعاني من القلق والاضطراب النفسي، وهذا يعاني من العزلة، وهذا يعاني من أصدقاء السوء، وهكذا دواليك، سنة ا في خلقه: (فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) (فاطر/ 43)، وقد بيّن ذلك ربُّ العزة سبحانه في كتابه بقوله: (وَلَنَبْدِلَوكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ...) (البقرة/ 155)، (وَنَبْدِلُوكُمْ بِالضَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (الأنبياء/ 35).

ومادامت المحنة بخيرها وشرها سنة ا في خلقه، لا تتخلف ولا تتبدل أبداً، فلا يليق بنا - نحن المسلمين - أن نقف عند المحنة نكي كما يبكي الصبيان والنساء، وإنما علينا أن نكون أقوياء، ونعمل جاهدين على تجاوز المحنة بكلِّ الأساليب والوسائل الممكنة، شريطة ألا تتعارض مع مبادئ الدين الحنيف.

ودونك الطريق:

- 1- على كلِّ صاحب محنة أن يضع في حسابه: أنها قضاء ا وحكمه ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، قال تعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَ أَهَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) (الحديد/ 22-23)، (مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ سَبِيلَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (التغابن/ 11).

وهذا ما وعاه واحد من العاملين لدين الله في هذا العصر، إذ قبض عليه، واقتيد إلى السجن والقهر والتعذيب، بل وحكم عليه بالبقاء في هذا السجن لأكثر من سبع عشرة سنة لا شيء إلا لأمره يقول ربّي الله، واهتم لسجنه نفر ممن يعرفونه عن قرب، إذ هو ابن نعمة نشأ وفي فمه ملعقة من ذهب، وهذه أول مرة يعامل فيها بهذه الصورة من القسوة والشدة، فكيف سيتحمل ويصبر إلى أن تنجلي هذه المحنة؟! ومضى اليوم الأوّل، والأسبوع الأوّل، والشهر الأوّل، والسنة الأولى، وسنوات عدّة، وهو على حاله لم يتغير أبداً، ولم يفرط، وتقدم هذا الذي شغله أمره إليه، وسأله: كيف استطعت تحمل المحنة هذا الزمن الطويل وأنت ابن النعمة؟ فأجاب في سهولة ويسر: أبداً لقد ألهمني الله من بداية المحنة أن هذا قضاؤه وحكمه، ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وقوى عندي هذا الإلهام حتى صار يقيناً، قادني إلى الصبر والتحمل.

2- وعلى كلّ صاحب محنة أن يوقن أن القضاء الذي نزل به، والحكم الذي أصابه، إنما هو أخف وأسهل بكثير من قضاء آخر أعظم منه، وحكم آخر أكبر وأشق منه كان يمكن أن ينزل به، وأن يصيبه، لولا لطف الله وفضله ورحمته، وعليه أن يوطئ نفسه على الرضا بهذا القضاء، والسكران الذي لم يجعله أشد وأكبر وأشق.

3- وعلى كلّ صاحب محنة أن يوقن أن الذي نزل به لا يخلو عن حكمة، وحسن تقدير، إذ ربّما كانت المحنة لأنّ هناك تقصيراً في جانب من الجوانب: في حقّ الله ودينه، في حقّ الأيوين، في حقّ الأهل والأولاد، في حقّ الأرحام، في حقّ الجيران، في حقّ الخدم والأجراء، في حقّ باقي الذي لهم عهد، وأمان، في حقّ النفس، وما أكثر الحقوق، وأراد المولى سبحانه أن ينبه عبده كرماً منه وفضلاً، علّة يتوب بتدارك هذا التقصير، والرجوع إلى الله والإنابة والاستقامة، إذ يقول سبحانه: (.. وَبَلَّغُوا نَهْمُكُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ) (الأعراف/ 168)، تكون المحنة حينئذ تكفيراً للذنوب والسيئات الماضية وتلك السيئات من التكفير، وتكفيرها بمحنة الدنيا أخف وأحسن بكثير من تكفيرها بعذاب الآخرة، وهذا الذي فطن إليه السحرة عندما توعدهم فرعون بالقتل والصلب لأنهم آمنوا برب هارون وموسى، قائلين: (.. لَنْ نُرْجِعَ إِلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَسِيِّاتِ وَالَّذِي فُطِرْنَا فاقض ما أُنزِلت قاض إن ربّما تقضي هذه الحياتة الدنيا * إن ربنا أمدنا ببربرتنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهنا هذا علانية من السحر واللاه خير وأبقى * إن ربّه من يأت ربّه مجرماً فإن له جهنم لا يمحوت فيها ولا يحيى * ومن يأت ربّه مؤمناً فده عمل الصالحات فأولئك لهم الدّرجات العلوية * جنّات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء لمن تزكّى) (طه/ 76-72). وقد تكون رفعاً للدرجات، إذ ربما سبق في علم الله منزلة للعبد لا يبلغها بعمله، وحينئذ يقدر الله عليه المحنة ليرفع من درجاته وليعليه المنزلة التي أرادها له، فقد جاء في الحديث: عن محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده مرفوعاً "إنّ الله عزّ وجلّ - إذا أراد بعبد منزلة لم يبلغها بعمل ابتلاه، ثم صبره على هذا البلاء، حتى يبلغه هذه المنزلة" وفي هذه والتي قبلها قال الله: (.. فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُذُوا فِي سُبُلٍ...) (آل عمران/ 195)، وقد تكون لأنّ الباطل يرفع شعارات براقعة يخدع بها الدهماء والعامّة فتكون سبباً في قعود هؤلاء عن تأييد الحقّ ونصرته، بل قد تكون سبباً في الاستمرار في تأييد الباطل ونصرته، ولا بدّ من ظهور الحقيقة دون لبس أو التواء، ليؤدي هؤلاء دورهم وواجبهم الحقيقي في التأييد والنصرة، أو على الأقل يكونوا محايدين لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، ولا سبيل لذلك إلا بالمحنة، قال تعالى: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَدْدٍ مِثْلُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) (الرعد/ 17)، وقد تكون لغير ذلك من الأسباب مما لا نعلمه، ويعلمه الله، والعاقلة هو الذي يوطن نفسه على أنّ الأمر لا يخلو من حكمة إلهية، وإن خفيت علينا هذه الحكمة، وبذلك يسهل على النفس قبول المحنة بل والمروء من فوقها إلى المنحة، وقد بيّن الله في قصة الخضر "العبد الصالح" مع موسى محناً خفيت حكمها على هذا النبيّ الكريم الله، وبدت هذه الحكمة في شرح هذا العبد لسائر التصرفات الغريبة التي وقعت منه، ولم يطلق موسى صبراً عليها إذ قال الله: (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينٍ...) (الكهف/ 79)، إلى قوله: (.. ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِمْ صَبْرًا...) (الكهف/ 82).

4- وعلى كلّ من لم تنزل به المحنة أن يتوقع المحنة على اعتبار أنها سنة من سنن الله في خلقه، وأن يعدّ نفسه ويدربها على كيفية تخلي المحنة إذا نزلت: بالصدق مع الله في حال الرخاء، إيماناً ويقيناً، وتوحيداً وإخلاصاً، وعملاً على وفق النهج القويم، فلا شرك ولا رياء، ولا شك، ولا معصية، ولا إصرار عليها إن وقعت، ولا تفريط في طاعة من الطاعات، ولو نافلة، وإن كان الرجوع بسرعة، ولا غفلة عند أداء الطاعة بل بيقظة وانتباهها، وفقهاً وتديراً، وشعوراً بالعجز وخوفاً من عدم القبول، على حد وصفه سبحانه للذين يخشونه بقوله: (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يَشْهَدُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنْ هُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)

وعندما نفهم أن العبد إذا فعل ذلك في حال الرخاء، فإنّ ا يكون معه يؤيده وينصره في وقت الشدة، إذ في حديث ابن عباس (رض): أن النبي (ص) قال له: "تعرف على ا في الرخاء يعرفك في الشدة... الحديث".

وكذلك بالصبر والتحمل، إذ إننا نطلب جنّة، ولا نصل إليها إلا فوق جبال من العقبات والمعوقات، والمحن والشدائد على حد قوله (ص) "حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهومات" وقوله: "ألا إنّ سلعة ا غالية ألا إنّ سلعة ا الجنة..." الحديث، وكلّ المخلوقات التي معنا ومن حولنا من طير ووحش وحشرة إنما تقيم مملكتها، وتصنع حياتها بالصبر والتحمل، مع التجريب والتدريب، ألا يكون ذلك عظة وعبرة لنا؟!، وقد قال سبحانه: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الروم / 21).

5- تذكير النفس بأنّ الجميع إلى ربهم راجعون لا محالة، الذين عاشوا في المحنة، والذين سلموا منها ليحزي كلاً بما عمل، ولا يستوي الفريقان كما قال ا عز وجل: (أَمْ زَجَعُوكَ الَّذِينَ أَمَدُّوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ زَجَعُوكَ الَّذِينَ أَلْمُتُّ بِقَبْلِهِمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (الجاثية / 21)، وقد بيّن ربّ العزة سبحانه في كتابه هذا العامل عندما قال: (.. وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (البقرة / 155-156).

6- اليقين بأنّ المحنة ليست حطنا وحدنا فقط، بل هي حظ الناس من قديم وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون، حتى قال النبي (ص): "أشد الناس بلاء الأنبياء، ثمّ الأمثل فالأمثل..." الحديث، هذا آدم ابتلي بالشقاق بين ولديه قابيل وهابيل حتى قتل أحدهما الآخر، وهذا نوح كانت مصيبته في ولده وامراته حيث كفرا باّ ورسالته، والدار الآخرة، وهذا إبراهيم ابتلي بقومه، وبالإلقاء في النار، وبذبح ولده، وغير ذلك من صور البلاء، وهذا موسى عانى ما عانى من بني إسرائيل، وهذا يحيى ابن زكريا يذبح وتقدم رأسه ثمناً لغانية فاجرة، وهذا زكريا يُنشر بالمنشار، وعلى عيسى يبتلى بالدجالين من بني يهود يريدون قتله لولا أنّ ا أكرمه وحماه فرفعه إليه، وهكذا سائر النبيين، وقد قال ا - عز وجل - : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصَدِّيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (يوسف / 111)، وكما كانت المحنة تصيب الأنبياء والمرسلين فقد كانت لذلك تصيب أتباعهم من المؤمنين الصادقين حيث يقول الحقّ تبارك وتعالى في أتباع النبيين من قبل:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيْؤُنَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَدُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَرْجَاؤَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (آل عمران / 146-148)، (من المؤمنين من رجال صدقوا ما عاهدوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) (الأحزاب / 23).

7- وعلى كلّ صاحب محنة أن ينظر في محن الآخرين المعاصرين له، ومنها ما هو أشد وأعظم من محنته، ولكنهم قابلوها بالصبر والتحمل، والرضا وانسراح الصدر، والطمع فيما عند ا سبحانه وتعالى.

8- دوام النظر في سير السابقين من أصحاب النبي (ص) وغيرهم، وكيف كانوا يواجهون المحنة من أمثال الرميضاء مع ولدها عبداً ومن أمثال أبي سلمة وزوجه وولده، ومن أمثال مصعب، ومن أمثال أم حبيبة.

9- الدعاء دائماً باللطف، والرضا والثبات، فقد كان النبي (ص) يقول في دعائه: "اللهم إني أعوذ بك من شرّ البلاء وسوء القضاء".

10- محاسبة النفس، ثمّ الإقبال على ا بالتوحيد والطاعة فريضة ونافلة، فلعلّ ذلك يكون سبباً في تخطي المحنة إلى المحنة.

11-مزيد من الترابط والتماسك الأخوي فإنّه ذو أثر كبير في تخفيف وقع المحنة.

12-الإفادة من الثغرات القانونية التي تفيد في فتح مجالات للعمل وتجاوز المحنة، كاللجوء السياسي، وحق الجوار...

13-النشاط في الدعوة والتربية لكسب العناصر المستعدة للتضحية والبذل والعطاء، فإن هذا النشاط يكون سبباً في قرب ساعة النصر أو إقامة الحجة عليها، وقد قال الله تبارك وتعالى: (وَإِذْ قَالَتِ الْأُمَمَةُ...) (الأعراف/ 164).

14-الانضباط في الحركة مع الطاعة في المعروف.

15-التطلع دائماً إلى الأجر، وقد قال الحافظ ابن الجوزي "من لاح له طريق الأجر، هانت عليه مشقة التكليف"، والله أعلم.

* أستاذ الحديث وعلومه المساعد بكلية الشريعة جامعة الكويت

المصدر: مجلة المجتمع/ العدد 1228 لسنة 1996م